

الفصل الثالث

الرموز
الثقافية
والدينية

--	--	--	--

obeikandi.com

١ - أهل الصلاح بين المجتمع والدولة:

أ - رموز الاستقطاب:

* الشريف:

هو من ينحدر نسبه من ذرية الرسول محمد ﷺ بواسطة ابنته فاطمة وزوجها على كرم الله وجهه. وظهور الشرفاوية Cherifisme يعود إلى البروز السياسى للعلويين بالمغرب الأقصى مع الأدارسة^(١) والسعديين^(٢). أما ألفرد بال فقد " علل ظهور الشرفاوية فى القرن السادس عشر إلى عزوات المسيحيين على الشواطئ وعجز الحكومات القائمة آنذاك عن ردهم مما فسح المجال لظهور ردود الفعل الدينية"^(٣). أما فى تونس فقد قلصت الدولة الفاطمية من نفوذهم السياسى والدينى وذلك لإقصائهم من قبل الصراعات المذهبية. لكن لم ينقطع نفوذهم الأدبى والدينى سواء فى العهد الحفصى أو العهد الحسينى. فلا بايات الحسينون يعظمون بيوت الشرف ويجلون ساداتها. فأحمد باى كان يتشيع لهم ببره وصلاته وكان يسمى ما يعطيه لهم "هدية" ولا ينطق بالإحسان

١ - يقول ابن أبى الضياف: "والمغرب يسلم الكرامة لهذا السيد حيا وميتا (ادرس بن إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسين ابن المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنهم) الإتحاف ١ / ٣١.

٢ - "اتخذ السعديون من الانتماء إلى السلالة النبوية وسيلة لكسب مزيد من احترام الشعب وتقديسه انظر إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء المغرب. الطبعة الأولى. (١٣٨٤ / ١٩٦٥) ٢ / ٣٥٦.

٣ - ألفرد بال: الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى مع الفتح العربى حتى اليوم ترجمة عبد الرحمن بدوى. دار المغرب الإسلامى. ط ٣ ١٩٨٧ ص ٤٢٨.

على عادة البلاد. وأخبره بعض الوشاة يوما أن الشريف محمود محسن لا يحبه ويؤثر عليه ابن عمه فقال: "ما أسعدنى لو أحبنى وإن كان لا يحبني فماذا أصنع مع ابن علي وفاطمة" (١).

أما عامة أهل المملكة فهم يدينون بحب آل البيت يستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم حتى أنالنسوان عند طلق الولادة ينادون "يا محمد يا علي" (٢). وابن أبي الضياف بدروه يحترم كثيرا علماء الأشراف ويتيمن ببركاتهم شأنه في ذلك شأن الشيخ إبراهيم الرياحي الذي كان يرغب في محبة الشريف محمود محسن "ويقدمه على نفسه" (٣). فالشرفاء في القرن التاسع عشر يتمتعون بخطوة كبيرة من قبائل البايات والعلماء. كما تخشى دعواتهم العامة وتتقرب إليهم. "لأن الحسنة في نفسها حسنة وهي بيت النبوة أحسن" (٤).

* الولي:

يعود ظهور الصلاح والزهد الصوفي في تونس إلى أواخر أيام بنى عبيد الذين ألغوا الوظائف الجهادية للرباطات (٥) وذلك لخلو العدو المتوهم من

١ - الإتحاف ٤ / ١٩٩.

٢ - الإتحاف ١ / ١٥٤.

٣ - الإتحاف ٤ / ١٥٨.

٤ - الإتحاف ١ / ٣١.

٥ - الرباط هو عبارة عن حصن مربع يتكون من طابقين. يرقى إلى الثاني منهما بسلم ويحتوى كل منهما على غرف تطل على صحن تحيط به أقواس. وفي كل زوايا الحصن برج لمراقبة العدو. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ١ / ١٩٠.

- أول رباط أقامه العرب بإفريقيا رباط المنستير أسسه الولي هرثمة بن أعين سنة ١٨٠هـ. على غرارها حصن به الرشيد العباسي ثغور البلاد في الشرق. انظر محمد=

الخارج وتوقعهم الخطر من الداخل لا سيما وقد أصبح الرباط فى عهدهم ملجأ المعارضين والرافضين لكل مذهب مخالف للسنة. لذلك وقع تجريد المرابطين من الأسلحة ومن مهمات الدفاع عن السواحل والثغور. آنذاك "تفرغوا للذكر والميعاد ومد اليد للطعام"^(١). وتفرق رواد الرباطات داخل البلاد ينشرون الصلاح ويخرقون العادات بالكرامات حتى أصبحوا فى منظور العامة أولياء الله الصالحين. وقد تجاوزت حركة الأولياء الحواضر إلى البوادي والمدامر لا سيما ونشاطهم لا يتناول السياسات. والتبرك بالأولياء أحياء أو أمواتا يعود فى الحقيقة إلى أدبار الشيعة العبيديين لأن الناس كانوا يتبركون بهم أحياء مثل وصف ابن رشيقي لسيدته. أما أهل تونس فكانوا يجلبون كثيرا الشيخ محرز بن خلف الصديقي^(٢) الذى حملهم على قتل الروافض من الشيعة. وكان يعتبره ابن أبى الضياف "خاتمة صلحاء إفريقية"^(٣). وكل منمر على قبره وقتئذ يأخذ من ترابه شيئا حتى إذا ركب البحر وعصفت الريح "أخرج من تراب قبره شيئا فتسكن الريح ويزول الخطر"^(٤).

والمجتمع التونسى فى القرن التاسع عشر استمر على ولائه الشديد للأولياء وأهل الصلاح سواء كانوا فى القبائل أو فى المدن. فالوالى داخل

=النيل البهلى: الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامى. تونس (١٣٨١هـ / ١٩٦٥م) ص ١٦٣.

١ - نفس المرجع ص ١٦٧.

٢ - محرر بن خبف بن زين الصديقي التونسى (٣٤٠ - ٤١٣) - (٩٥١ - ١٠٢٢) كان يلقب بسلطان المدينة لمناقبه وكراماته المتعددة. انظر المصدر السابق ص ١٨٢.

٣ - الإتحاف ١ / ١٦٩.

٤ - الإتحاف ٣ / ٦١.

القبيلة هو الحامى للأرض وهو الذى يوزع البركة على السكان . أما المدينة فكل طائفة يمثلها ولى يكشف عنها الضر ويتوسل إليه بتقديم الرايين وربط الخرق ورفع الصناجق . أما الدولة فقد أخرجت هذه الظاهرة التقديسية من إطار الشكلاية الشعبية إلى إطار الرسمية حيث " سن حمودة باشا الحسينى زيارة الأولياء قبل الأسفار" (١) .

وابن أبى الضياف كان بدوره يعتقد فى كرامة الأولياء وبشارتهم من ذلك كرامة الشيخ على المازغنى تلميذ الولى سيدى أحمد الباهى الذى قص عليه رؤياه قائلا : " بشر أمك فإن والدك تسرح : يقول ابن أبى الضياف : وتسرح أثر ذلك بأيام" (٢) .

* شيخ الطريقة أو الزاوية :

إن الأسباب التى ساهمت فى ظهور الطرق الصوفية والزوايا (٣) فى التاريخ الاجتماعى التونسى لا تقف عند حد معين ، وذلك لتضافر عوامل داخلية وخارجية اشتركا فى بعث هذه التنظيمات الدينية التى تركز على

١ - الإتحاف ٣ / ٦١ .

٢ - الإتحاف ٨ / ٤٧ .

٣ - الزاوية تعنى فى اللغة الركن - وهذا المصطلح يعكس استقرار الصوفية بتأسيس الزوايا . وأول من أسس الزاوية الأولى بالشرق : الأمير صلاح الدين الأيوبي والمعروفة بخنقاه " سعيد السعداء " فى مصر . وقد نسج الملوك والأمراء على منواله فى البلاد الإسلامية انظر محمد النبال البهلى : الحقيقة التاريخية للتصوف ص ٣٤٢

- وانبعاث الزاوية فى تونس بدأ بتعليم الصبيان والأُميين التعليم الدينى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر داخل البوادي الأمر الذى تعذر على الحكومات القيام به . لذلك وكل الأمر إلى شيوخ الزوايا - نفس المرجع ص ٤٤٤ .

أساس معرفي مجرد ينزع نحو المقامات الربانية، إلى جانب إشرافها على بعض الأعمال الخيرية والتعليمية. ومن أبرز هذه العوامل نذكر:

- تحول الرباطات من مكان لحراسة الثغور والجهاد إلى خوانق للتعبد والخلوة والمجاهدة الصوفية. "وبذلك تحول المنستير إلى أول زاوية بعد مسجد السبت فقامت فيه حليقات الذكر الجماعي مع الضرب على الصدور حتى الإغماء" (١).

- محاولة تجاوز الخلافات المذهبية والثورات المتكررة بين أهل السنة والخوارج والشيعة والعمل على توحيد المسلمين دون إفساد للعقيدة. "فزعما الطرق الصوفية نزلوا بمستوى التعليم المذهبي والعلمي يجعلونه في مستوى فهم العامة لكنه لم ينهض بعد ذلك أبدا" (٢).

- التعليم الإسلامي المالكي داخل المدن ترك فضاء رحبا داخل البوادي والأرياف مما استدعى الحضور الطرقي والصوفي ملء هذا الفراغ روحيا واجتماعيا. "فتحت التأثير المتفاقم لأعمال الغزالي أصبح المذهب السني المرافق منذ عهد بعيد على درجة معينة من الزهد يقبل كثير من مظاهر التجربة الصوفية" (٣) لا سيما بعد انقضاء العهد المرابطي الذي عمل على إحراق كتاب الإحياء لنقده الفقهاء المعارضة للتصوف. وظهور الفكر الموحدى الذي قلص من نفوذ الفقهاء

١ - المصدر السابق ص ١٦٦.

٢ - ألفرد بال: الفرق الإسلامية ص ٣٩٣.

٣ - روبر بارنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ - ترجمة حمادى الساحلى. دار المغرب الإسلامى - الطبعة الأولى - بيروت لبنان ١٩٨٨ ص ٣٥٢.

وسلطتهم. لكن الفكر السنّي عموماً رغم صرامته قد توافق في الواقع مع العقيدة الصوفية لمساهمتها في رفع المستوى الذهني والأخلاقي للعامة لا سيما عربان البلاد.

- دخول الإمام الشاذلي^(١) تونس سنة (٦٤٢هـ) بأمر من عبد السلام مشيش "الذي أوصاه أن يبدأ دعوته بشاذلة من أعمال تونس" (٢).

فالأَسباب إذن كثيرة لا يمكن حصرها. لكن المهم في كل ذلك هو نجاح الطرق الصوفية في احتواء المجتمع التونسي عامته وخاصته وهيمنة فكرها الصوفي على التعليم الفقهي والتمذهب الديني سواء في العهد الحفصي أو العهد الحسيني. فالتعاليم الصوفية نزعت المنزع الشعبي وساهمت كثيراً في تأصيل ظاهرة الصلاح وبركة الشيخ حيا أو ميتا في مخيال العامة والخاصة. وكان "المبدأ الذي عمل الشاذلي على توضيحه انطلاقاً من المغرب - تونس - مصر يتلخص في كون التصوف والحياة صنوان لا تعارض بينهما" (٣).

١ - سيدي أبو الحسن على الشاذلي أو "سيدي بلحسن" قدم من المغرب الأقصى إلى تونس. ولد سنة (٥٩٣ / ١١٩٧) في قبيلة غمارة وكان شيخه الولي الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش المتوفى حوالي (٦٢٤ / ١٢٢٧) شقيق جد أشرف وزان. اعتكف في جبل زغوان ملجأ الزهاد والورعين آنذاك وعمل على نشر تصوفه ثم انتقل في عهد أبي زكريا إلى مدينة تونس. وهناك تألب عليه جماعة من الفقهاء الذين حسدوه على ما ناله بصيت بإفريقية وتزعم المعارضة والكيد له ابن البراء قاضي الجماعة آنذاك. عندئذ تحول إلى مصر ومنها إلى الحجاز. توفي سنة (٦٥٦ / ١٢٥٨) المصدر السابق ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

٢ - إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ٢ / ١٠٤.

٣ - علال الفاسي: التصوف الإسلامي بالمغرب. مجلة الثقافة المغربية عدد ١ يناير - فبراير ١٩٧٠ ص ٢٤.

وقد تدعم فى العهد الحسينى النفوذ الدينى الاجتماعى والسياسى للزوايا والطرق الصوفية لا سيما وأن مؤسس الدولة حسين بن على تم ترشيحه بإحدى الزوايا بالحاضرة. بل أكثر من ذلك اعترف الحسينيون بالطرق الصوفية قانونيا وتم وضعها إداريا تحت إشراف رئيس عام يسمى شيخ مشايخ طريقة ما^(١).

ويمثل موقف ابن أبى الضياف من الصالحين موقف معاصريه فهو يعتقد فيهم ويحترمهم ويضفى عليهم مسحة الإكبار والسيادة كقوله: العارف بالله - سيدى الشيخ... لكن الدارس لكتاب الإتحاف يصعب عليه أن يميز بين الشريف والولى وصاحب الزاوية وذلك لتشابه صفاتهم وتداخل أعمالهم مع وظائف الدولة. لذلك يصعب تحديد طبقاتهم. لكن انطلاقا من سياقات النص المختلفة يمكن تصنيف أهل الصلاح حسب المقاييس التالية:

- الولى لا يكون صالحا إلا إذا كان يتمتع ببركة عجيبة تجعل منه كائنا استثنائيا يخشاه الناس ويرغبون فيه فى نفس الوقت فهو يستمد نفوذه من عمله ومعرفته بالله والبركة التى يملكها. لذلك لما أراد الوزير يوسف صاحب الطابع إعانة بعض الصالحين سأل الباي عن كرامته قائلا "وأى كرامة له... قال له: لا كرامة ولا ولاية. يستحق هذه الأرض لثباته وشجاعته"^(٢).

١ - عدنان العجيلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسى بالبلاد التونسية (١٨٨١ - ١٩٣٩) دكتوراه حلقة ثالثة - تحت إشراف: الأستاذ رشاد الإمام الجامعة التونسية. كلية الآداب (١٩٨٦ ي - ١٩٨٧) ص ٩.

٢ - الإتحاف / ٨ / ٤٥.

- الولي لا يكون صالحا إلا إذا اتفق الناس على كرماته كالسيد حسن الشريف الذي يعود نسبه إلى آل البيت "فإن لأهل تونس تيمن به في أمورهم ولو برأى منه" (١). فالولي هو من يعرف تدينه ويشتهر زهده بين الناس كالسيد عبد الملك العونى الذى لم يلبث فى خطة الكتابة إلا أسبوعا فى بيت خزندار فى عهد حموده باشا "ثم طار به جناح الجذب إلى ناجعته" (٢).

- شيخ الطريقة غالبا من يكون من أحفاد أهل الصلاح والأولياء كالشيخ اسماعيل الباهى ابن الولي أبى العباس سيدى أحمد الباهى فقد "تقدم شيخا بزاوية جدهم" (٣).

- شيخ الطريقة غالبا ما يكون مفتيا أو إماما مثل السيد أبو الشاذلى بن المؤدب فقد كان يشغل إلى جانب خطة الإفتاء والإمامة رئاسة الطريقة الشاذلية "وقد مشى الباي فى جنازته كواحد من أهل الطريقة" (٤).

- شيخ الزاوية قد يكون ممن ينسب إلى صلاح فى قومه كجد والد أحمد بن أبى الضياف الذى كان سائحا مجذوبا "وقد بنى على قبره حموده باشا المرادى قبة... وحبس على زاويته بسليانة هنشيرا" (٥).

١ - الإتحاف ٨ / ١٨١ .

٢ - الإتحاف ٨ / ٤٤ .

٣ - الإتحاف ٨ / ٣٤ .

٤ - الإتحاف ٤ / ١٢٦ .

٥ - الإتحاف ٨ / ٣٧ .

- شيخ الطريقة قد يكون من أعيان البيوت كالسيد على الشريف الأندلسى الذى ينحدر من أبناء أعيان أشراف الأندلس "وقد تقدم شيخا لطريقة الولي العارف بالله سيدى محمد بن عيسى الباقية بركته حتى الآن" (١).

انطلاقاً من هذه النماذج المذكورة نلاحظ فقدان الزاوية أو الطريقة لمضمونها الروحى والدينى وانحرافها عن لحظة انبعاثها وتأسيسها. فالولاية أو رئاسة الطريقة والزاوية أصبحت تبوأ حسب الاعتبارات التالية :

- الوراثة والنسب الرفيع .
- المنزلة الاجتماعية : أعيان البيوت .
- النفوذ الدينى : شرف الخطّة
- النفوذ الاجتماعى : (الصلاح فى قومه) .
- والكرامة تكون حسب الصفات التالية :
- النسب الشريف .
- الشهرة (الصلاح والبركة) .
- الوفاء فى خدمة المخزن .

ب - توزيع الحراك داخل الحقل السياسى والاجتماعى:

نظرا لأزمة الحراك السياسى بين الجهاز الإدارى المملوكى والمجتمع لا سيما القبيلة ونظرا للمشارك الثقافى والمشروعية التاريخية التى تجمع الطرفين، فقد شكل أهل الصلاح أو "الجسم الصوفى" الممثل فى (الولى الزاوية والطريقة) وما يمتلكه من رأسمال رمزى دور الوسيط الفاعل الذى يعمل على إعادة توزيع الحراك، وذلك عبر إضفاء الشرعية على ثقافة القبيلة وأعرافها من جهة والتدليل على الشرعية السياسية للمخزن من جهة ثانية. وعلى هذا الأساس فقد ساهم أهل الصلاح فى دفع الحراك وتوزيعه بين المجتمع والدولة حسب المستويات التالية:

* الانتماء:

لقد استقطب أهل الصلاح فى القرن التاسع عشر اهتمام جميع الناس سواء كانوا من رجال الدولة وسكان المدن أو من أبناء القبائل وسكان المداشر وذلك لأهمية الحراك الروحى والمعرفى الذى ينظم علاقات الجماعة ولا يعرف حدودا. "فالجسم الصوفى" يعيد باستمرار ترتيب الواقع والأولويات ويغرق ثقافة المجتمع بالأبعاد الرمزية والأدبية. فالدولة الحسينية ذات الأصول اليونانية كانت تتحسس ضعف نسبها وغلبة النزعة العسكرية التى تميز رجالها، مما حدا بابن أبى الضيف إلى وصف بعضهم بالأمية والضعف من أخلاق الرئاسة وعوارض السياسة. وتجاوزا لهذه النقائص سعة الدولة إلى اعتناق ثقافة المجتمع المحلى والتماهى مع عاداته وتقاليده. فحسين بن على مؤسس الدولة دعم ملكه بمآثر عمرانية تمثلت بالخصوص فى بناء المدارس وتحديد بناء الزوايا ووضع القباب على أضرحة الأولياء.

"وكان يعتقد في ولاية السيد إبراهيم الجمنى" (١). فالحسينيون أرادوا البرهنة على انتمائهم الروحي لأهل الصلاح واندماجهم الفعلي مع ثقافة المجتمع. لذلك "كان حموده باشا من أتباع الطريقة القادرية" (٢) ومن المساهمين في بناء زاويتها بمنزل بو زلفة (٣).

أما أحمد باي فإلى جانب تعظيمه للأشراف واحترامه للأولياء "كان هو وأخيه من أهل الطريقة التيجانية" (٤) «(٥).

فالدولة كانت تعبر عن انتمائها بالاعتقاد والمحبة أولاً ثم ببناء الزوايا وحبس الإقطاعات على الأولياء إلى جانب الهدايا والمنح... وإذا لم تعلن

١ - انظر الإتحاف ٢ / ١٢٩.

يقول ابن أبي الضياف "وللباي حسين محبة واعتقاد في هذا السيد وأشر له بالولاية وبنى على ضريحه قبة ولم تزل الملوك تعظم زاويته وذريته لهذا العهد. نفس المرجع.

٢ - القادرية نسبة للشيخ سيدى عبد القادر الجيلاني ولد في جيلان ورتء طبرستان سنة ٤٧١هـ انتقل إلى بغداد في شبابه وأخذ عن شيوخ العلم والتصوف. وبرع في أساليب الوعظ وكان يأكل من عمل يده. تصدر للتدريس والإفتاء ببغداد ومات بها سنة ٥٦١ هـ اجتمع به في مكة الشيخ أبو مدين وأخذ عليه الطريق ولبس من يده الخرقة. وممر أبو مدين بتونس عند رجوعه من الحج فاجتمع به الأصحاب. والطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية في تونس وكانت زاوية المنزل أول قادرية بتونس صدر فيها أمر من الأمير برعايتها وحصانتها.

محمد النبال البهلي: الحقيقة التاريخية للتصوف ص ٣٢١.

٣ - انظر عدنان العجيلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية ص ٩.

٤ - التيجانية نسبة إلى أحمد التيجاني العلواني المتوفى سنة (١٢٣٠هـ / ١٨١٤م) متصوف. زاهد عرف بدروسه وكراماته. أسس طريقة بمدينة فاس المغربية. وقد انتشرت بتونس على يد الشيخ إبراهيم الرياحي الذي اجتمع بالتيجاني عند سفره إلى المغرب - انظر محمد النبال البهلي: الحقيقة التاريخية للتصوف ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

٥ - الإتحاف ٦ / ٨٠.

الدولة عن انتمائها إلى أهل الصلاح وتتغافل عن ولائهم ونفوذهم تسقط شرعيتها السياسية من أنظارهم ويتمنون لها الزوال، من ذلك إن شيخنا مجذوبا جاء يتقدم قبيلته لبيعة عثمان باى، فقال: "أين الباي؟ فقالوا هذا وأشاروا إليه. فقال لم أره ثم قال من ولاك. فقال له باش حانية أولاه الله تعالى. فقال المجذوب أنا لم نوله" (١).

أما بالنسبة إلى العلماء فهم بدورهم يحترمون الأولياء الصالحين ويتمنون بالأشراف. فالشيخ إبراهيم الرياحى كان ينتمى إلى الطريقة التيجانية بل أكثر من ذلك كانت له علاقات بشيوخ الزوايا وأبنائها "كاستقباله فى بيته لابن شيخ الطريقة التيجانية" (٢).

أما عامة الناس سواء بالمدن أو الأرياف فإنهم كانوا بدورهم ينتسبون إلى الأولياء والطرق المختلفة. "فمن لا طريقة له فطريقته شيطانية" (٣). ففى الحاضرة مثلا كان "سيدى البشير يمثل شيخ جنود زواوة وسيدى بقطاش شيخ جنود الترك وسيدى بوسعيد رايس البحارة وأم الزين البوهالية بية الأمحال - أولياء طوائف الصناعات" (٤).

وإذا كان البايات والوزراء ورجال المخزن كما بينا سابقا يتمنون إلى الطريقة التيجانية فإن أرباب الحرف الشعبية شاذلية وأرباب الصناعات التقليدية قادرية" (٥).

١ - الإتحاف ٦ / ١٣١.

٢ - انظر الإتحاف ٣ / ١٩٩.

٣ - الصادق الرزقى: الأغاني التونسية الدار التونسية للنشر الطبعة الثانية ١٩٨٩ ص ١٠٧.

٤ - انظر عثمان الكعاك: التقاليد والعادات التونسية ص ٨٢ - ٨٣.

٥ - نفس المرجع ص ٨٣.

كذلك الشأن لسكان الآفاق فى القبائل والمداشر فهم أكثر ولاء لشيوخ الطرق والأولياء وذلك لما يقدمونه لهم من خدمات جلييلة ومتنوعة نذكر منها:

- التخفيف من العداوة القائمة بين العروش بسبب النهب والغارات .

- نشر التعليم وتقديم الخدمات الاجتماعية .

والأهداف الاجتماعية للزوايا داخل المجتمع القبلى تظهر من مواقعها "الاستراتيجية" إذ غالبا ما تكون "قرب معبر خطير من طرق السابلة... فزاوية بن عزوز أقيمت بخنقة تالة ولم تكن أهلة بالسكان" (١).

فالقبائل تعظم كثيرا أهل الشرف والفضل والصلاح وتعتقد فى بركاتهم أيما اعتقاد حتى "أن الواحد من قبيلة زاوية إذا حلف بحق سيدى البشير لا يكاد يحنث وسبحته إلى آلاف يتبركون بها ويتعاهدون عليها" (٢).

وهذا الاعتقاد الجازم من قبل سكان المداشر والقبائل لا تبرره رمزية الطريقة وتأثيرها الروحى من جهة أو "أيدىولوجية الانتماء" من جهة ثانية بقدر ما يبرره الواقع الاجتماعى المضنى الذى يفتقر إلى كثير من الخدمات عجزت الدولة عن توفيرها لهم. لذلك فإن عائلة البكرى ذات النسب العربى القرشى دفعتها مروءتها وكرمها إلى "بعث زوايا لعدة عروش كالمواطيس والحسنة وزياد يستقلون برئاستها وزكواتها" (٣).

١ - عبد الجليل الميساوى: زوايا الوسط الغربى ودورها الاجتماعى - الحياة الثقافية السنة السابعة - العدد ٢١ ماى - جوان ١٩٨٢ ص ٦١.

٢ - الإتحاف ٣ / ١٥٧ .

٣ - الإتحاف ٧ / ٦٠ .

* الاحتماء:

المقصود بالاحتماء هو إحساس المتتسبين لبعض الطرق والأولياء أنهم فى حمايتهم وعنايتهم دفعا للسوء وتجنبنا للمكروه. فقد أوتر عن الشيخ أبى مدين بن شعيب بن حسن الأندلسى قوله: "بى قل وعلى دل فأنا الكل" (١). فالوالى عند القبائل هو الحامى للأرض والسكان. لذلك يتقربون إليه بالقرايين وربط الخرق والأخذ من ترابه. والولى إذا كان حيا يعاهد بالمحافظة وإذا كان ميتا يعاهد بربط خرقة تكون عقدتها الميثاق بينهما" (٢). وقد كانت الحاضرة تسمى بالمحروسة لأن الأولياء بمثابة سلاطين المدينة يحرسونها من كل سوء وسكانها فى حمايتهم حتى "أن الولى العارف بالله سيدى أحمد زروق يسميها قصافة الجابرة" (٣).

يقول: وكل جبار إذا ما طغى وكان فى طغيانه يسرف

أرسله الله إلى تونس إذ كل جبار بها يقصف

وقد كانت حرم الأولياء والزوايا تشكل الملاذ الوحيد لسكان الإيالة إذا ما أحسوا بخطر أو داهمهم شر وبلاء لا يقدرّون عليه خاصة إذا أرادوا رفض أمر سلطانى. فإن الحرم أو مقام الولى رمز لوحدهم وتناصرهم مثل رفض أبناء الحاضرة المحليين لتجنيد أبنائهم فى الخدمة العسكرية حيث "اجتمع كثير منهم بمقام الولى سيدى محرز بن خلف رضى الله عنه وشربوا من حوضه وتعاهدوا على نصر بعضهم" (٤).

١ - انظر مصطفى بدرى: الرؤية السياسية من خلال رسالتى محمد بيرم الخامس مصطفى

فاضل الدار التونسية للنشر ١٩٩٣ ص ٤٣.

٢ - انظر عثمان الكعاك: التقاليد والعادات التونسية ص ٨٤.

٣ - الإتحاف ١/ ١٨٥.

٤ - الإتحاف ٣/ ٢٦٤.

وللوقاية من بأس وشر الجند كانت العامة إذا خرجت إلى الطرق وترفع صناعق الأولياء. وتوزيع حق الاحتماء لم يكن قصرا على العامة. فكلما اشتد الكرب ببعض الأمراء أو أبنائهم نتيجة الفتن والدسائس يتوجه بعضهم إلى الزوايا يطلبون المساعدة أو الشفاعة مثل التجاء ابنى عثمان باى إلى الشيخ بلغيث البكرى يطلبون مساعدته سنة (١٢٣٠ / ١٨١٤) فقال لهما: "امتد كما بالدعاء وطلبة الزوايا"^(١). وكشرط للأمان كانت خاصة الممالك تتوثق فيما بينها بالسبحة ودليل الخيرات^(٢) إلى جانب الاحتماء بالزوايا كانت الدولة تتيمن بالشرف. ففي سنة (١٢٦٦ / ١٨٤٩) لما ظهر فى المملكة وباء الكوليرا أو ما يعبر عنه فى الحجاز بالريح الأصفر وقع توظيف أربعين شريفا اسمهم المشترك محمد للدعاء وكشف الضرر. آنذاك "تراجعت الشدة ونقص عدد الموتى"^(٣).

* المشاركة:

إلى جانب توزيع الانتماء والاحتماء إلى عامة الناس وخاصتها ثبتت مشاركة أهل الصلاح فى خدمة الدولة أحيانا ومقاومتها أحيانا أخرى.

١ - الإتحاف ٣ / ١٢٩.

٢ - دليل الخيرات وشوارق الأنوار فى ذكر الصلاة على النبى المختار "لمحمد بن سليمان بن أبى بكر الجزولى السملانى الشريف الحسينى المتوفى سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م. كان منتشرا فى العالم الإسلامى وفى تركيا بالخصوص. بلغ احترام التونسي لهذا الكتاب وتبركهم به كبيرا حتى أن البايات كانوا يبعثون بنسخ منه مع سبحاتهم إذ منحوا الأمان لأحد. كما أوقف عدد من أهل البر والأوقاف على قراءة هذا الكتاب فى المساجد.

- د. أحمد عبد السلام: المؤرخون التونسيون فى القرن ١٧ و ١٨ و ١٩م. ترجمة أحمد عبد السلام/ عبد الرازق الحليوى بيت الحكمة قرطاج ١٩٩٣ ص ٦٢ (الهامش).

٣ - الإتحاف ٤ / ١٤٩.

- المشاركة المخزنية:

من جملة تفاعلات السلطة مع الزاوية هو تشريكها في العمل الاجتماعي والسياسي للدولة مثل تفويض المشير أحمد باي إلى الزاوية أمر تسريح العبيد وعتقهم حيث "عهد الأمر لزاوية سيدي محرز والزاوية البكرية وزاوية سيدي منصور يكتبون لكل من أتى مستجيرا حجة في العتق عن سيده"^(١). كما كان لبعض شيوخ الطرق وظائف في الدولة كالسيد أبو محمد الشاذلي بن المؤدب شيخ الطريقة الشاذلية الذي يشغل نفس الوقت خطة القضاء والإفتاء. هذا إلى جانب مشاركة الأشراف وانخراطهم في سلك الدولة. وكذلك الأمر بالنسبة لشيوخ الزوايا والطرق خارج الحاضرة فهم يقدمون خدمات جليلة للدولة لعل من أبرزها مشاركة "شيوخ الزوايا بالكاف حموده باشا الحسيني في حربه ضد الجزائر"^(٢). وكذلك استمالة الشيخ مصطفى بن عزوز لقبائل الهمامة ونفات وأولاد عون وقبائل جلاص وعلى بن غدامهم نفسه وكف عاديتهن عن الثورة والخروج عن الدولة. "وقد عقد الباي يده بيد الشيخ وعاهده على الوفاء بالعهد في أمان الناس"^(٣). وإلى جانب المشاركة الفعلية والمباشرة اعتمد البايات على المشاركة الرمزية لبعض الأولياء الصالحين كما فعل حسين بن علي في حربه للجزائريين سنة (١١١٧/ ١٧٠٥) الذي ادعى عن تحالف الأولياء معه لإثارة الرهبة في قلوب الأعداء إذ "استرجع مدفعا من النحاس كان مردوما وذلك بإشارة من السلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلي"^(٤).

١ - الإتحاف ٤ / ٩٨.

٢ - الإتحاف ٣ / ٦١.

٣ - الإتحاف ٥ / ٢٠١.

٤ - الإتحاف ٢ / ٢٠٩.

- المشاركة ضد المخزن:

شارك بعض الأشراف وشيوخ الزوايا فى ثورة العربان ١٨٦٤ وأعلنوا صراحة خروجهم عن سلطة الدولة. كمشاركة السيد الشريف على بن عمر من أعيان مساكن وابنه اللذان "غمسا أيديهما مع القوم" (١). وكذلك مشاركة الشيخ الحاج مبارك صاحب الزاوية بتالة فقد كان الرجل بشعار التصوف يسعى مع كل قوم ويهب مع كل ريح" (٢). ومن جملة المشاركين أيضا فى ثورة ١٨٦٤ شيخ الزاوية بمنطقة سوف وهى بالصحراء الجزائرية. ومن الذين ماتوا ضربا بعد القبض عليهم إلى جانب شيخ الطريقة بتالة نذكر وفاة "ولد الشيخ سيدى أبى حميدة صاحب القبة فى الفحص" (٣).

ج - أزمة الحراك:

من أبرز أسباب هذه الأزمة نذكر:

* توارث الولاية والصلاح:

لم تخل مؤسسة الطرق والزوايا من مبدأ النسب وشرط الوراثة فبمجرد موت الأب تتحول الولاية إلى الأحفاد. فالشيخ إسماعيل الباهى الذى تقدم لزاوية جدهم وفاة عمهم "كانت قراءته بغضب من أبيه" (٤).

فالوراثة هى التى جعلت الكثير من الأميين وبسطاء العقول يحتلون مراكز القيادة الروحية وهم عنها بعداء لا يستحقون جدارتها. وهكذا انحرفوا

١ - الإتحاف ٥ / ٢١٤.

٢ - الإتحاف ٦ / ٣٧.

٣ - الإتحاف ٦ / ٣٨.

٤ - الإتحاف ٨ / ٣٤.

بالزوايا عن وظائفها الروحية والاجتماعية وساهموا فى تنمية الخرافة والأسطورة داخل المخيال الشعبى، حتى أن بعض العامة اتخذوا من حجر بشاطئ البحر سموه كرسى الصلاح "يذبحون به ويلقون المذبوح فى الماء" (١).

* الانحياز المخزنى:

كما بينا سابقا؛ فإن الدولة الحسينية عجزت عن ممارسة الحكم باعتباره مشروعا اجتماعيا وسياسيا منفتحا، وذلك لصعوبة الحراك بينهما وبين المجتمع القبلى خاصة. لذلك طفقت تبحث عن مشروعاتها داخل المجتمع عبر استثمار ولاء الزعامات القبلية وأعيان البيوتات كسلطة مدنية تمهدها بالسيف والبرنس لتسهيل دفع الجباية. فبقيت السلطة الروحية التى تتوسط المجتمع والدولة لقوة تأثيرها الدينى واستقطاب رأسمالها الرمضى للجميع. فقد ساهمت هذه المؤسسة فى توزيع الحراك الاجتماعى والسياسى والدينى والتحكم فى شبكة المجتمع بفضل نفوذها الروحى والمادى لكن تطور علاقاتها المخزنية جعلها تضيف الشرعية على الدولة وتلغى شرعية المجتمع فى التعبير عن حقوقه. فتحولت بالتالى إلى عون مخزنى. فتقلص وزنها لدى المجتمع واتهمت بالخيانة والغدر كموقف فرج بن دحر الرياحى من المصالحة التى قام بها الشيخ مصطفى بن عزوز إذ يقول مخاطبا على بن غزاهم عند تراجعه عن الثورة: "ولنا مع سيدى مصطفى بن عزوز موقف بين يدى الله وعلى كل حال فقد حاق بنا الغدر" (٢). وكذلك موقف أهل مساكن أو الساحل الذين

١ - الإتحاف ٣ / ٨٠.

٢ - الإتحاف ٥ / ١٩٣.

امتنعوا عن قبول الشيخ الصالح السالك أبو العباس أحمد بن الوارث وقالوا:
"ما بال هؤلاء يرسل إلينا فى الباصين" (١).

لذلك فقد استفحلت أزمة الثقة بين شيوخ الزوايا والطرق وبين عامة
الناس خاصة بعد عجز الولي محمد العيد شيخ الطريقة التيجانية عن حماية
على بن غذاهم لما استجار به. "فنقم الناس على هذا السيد... الذى أثر
إكرام القرى وراحة الفابور... من حماية من استجار به وسقط من أعين
الناس" (٢).

فسقطت الطريقة وزعمائها من المخيال الشعبى وذلك بعد أن تحولت
إلى خدمة المخزن - بذلك فقد ترتب على انحراف للمشاركة ذهاب الاحتماء
وسقوط الانتماء بل تحول الاحتماء بالطرق الصوفية إلى الاحتماء بالأجانب،
"كالتجاء السيد الشريف عمر المقرون إلى دار القنصل الفرنسى سوسة" (٣).

١ - الإتحاف ٥ / ٢٠٤.

٢ - الإتحاف ٦ / ٨٠.

٣ - الإتحاف ٥ / ٢٠٨.

٢ - العلماء:

أ - خصائص الحراك التعليمي:

فالعالم أو رجل الدين "هو رمز للمقدس (العقيدة/ الشرع) وهو وريث الأنبياء ومرجع العامة والخاصة (أهل الذكر).

فالعامة تعتبره الممثل الديني والأخلاقي وتعتمد عليه في الدفاع عن حقوقها والتعبير عن آرائها والحفاظ على مصالحها عند الحاكمين. لذلك بعث على بن غذاهم رسالة إلى رئيس المفتين من العلماء المالكية ملحا عليه ضرورة المساهمة في إسكان حيرة الرعية وإصلاح البلاد. فالعالم داخل النسق الاجتماعي في القرن التاسع عشر يمثل همزة الوصل بين المجتمع والدولة، وذلك لغياب الحراك السياسي والثقافي المباشر بين القبائل والسلطة السياسية. فالعلماء هم نواب المجتمع عند السلطان باعتبارهم الممثل الوحيد الذي يملك شرعية الخطاب عند الدولة. لذلك قال على بن غذاهم في رسالته " وتخطب عنا مولانا فيما يصلح للخلق ويهنيهم"^(١). في حين يرى السلطان في العالم مثال التعقل والاعتزان وموطن الحكمة الحقيقية (الشرع). لذلك فهو يقربه إليه نجيا لينتفع من عمله ويستثمر خدماته في إطفاء الفتن وتهذبة ضجيج العامة. وهذا ما يفسر انتداب الدولة للشيخ الشريف أبي محمد حسن المقرون ومن له سابقا "اليد البيضاء في إطفاء لهيب فتنة كادت أن تقع في الحاضرة"^(٢). لإقناع الثوار سنة ١٨٦٤ برفع أيديهم عن مخانق الساحل.

١ - الإتحاف ٥ / ١٨٤ .

٢ - الإتحاف ٥ / ٢٠٣ .

فالعالم فى القرن التاسع عشر كان يشكل أداة الخطاب والتواصل بين المجتمع والدولة. فشخصية الاستقطاب لدى العلماء يبررها القيام بسلطة موازية لسلطة الدولة أو أشد خطورة منها وذلك لجمعها بين النفوذ الدينى (الشرع) والنفوذ الاجتماعى (أهل الذكر للعامة والخاصة).

لكن هل استطاعت النخبة المثقفة فى القرن التاسع عشر استثمار النفوذ المزدوج كقوة عالمية موجهة مصلحة وناقدة؟

إن الدور الوظيفى للعلماء داخل المجتمع يتوقف على طبيعة الحراك التعليمى الذى يعكس واقع النخبة المثقفة من حيث الانتماء الاجتماعى والطموحات التى تسعى إليها الفئة العاملة. فرسالة على بن غزاهم والفاقد لمشروعية الخطاب الدينى (الشرع) نتيجة الأمية وتحكم العادة والعرف فالنمط التعليمى المتواضع داخل الفضاء القبلى والذى يركز على ثقافة الكتاب والزوايا هو الذى سيولد الحراك نحو الثقافة المكتوبة ثقافة الشرع وحضارة المدن. كذلك توظيف السلطة العلماء للتداول مع سكان الآفاق يعكس الواقع المدينى وثقافة المركز المؤسسة على المدارس ومعارف الجامع الأعظم التى أهلت الفئة العامة لحسم النزاعات ورد الخارجين إلى صياصيتهم حتى أن على بن غزاهم لما عزم على التوجه إلى المحروسة (الحاضرة) اعتبر شيخ الإسلام ذلك ضررا لا يجوز الإقدام عليه. فكانت إجابة الشيخ بمشابة المسلمة التى تراجع بمقتضاه على بن غزاهم عن عزمه وصرح قائلا: "وحاشى أن نخالف منهجكم المنتسب للشرعية المحمدية" (١).

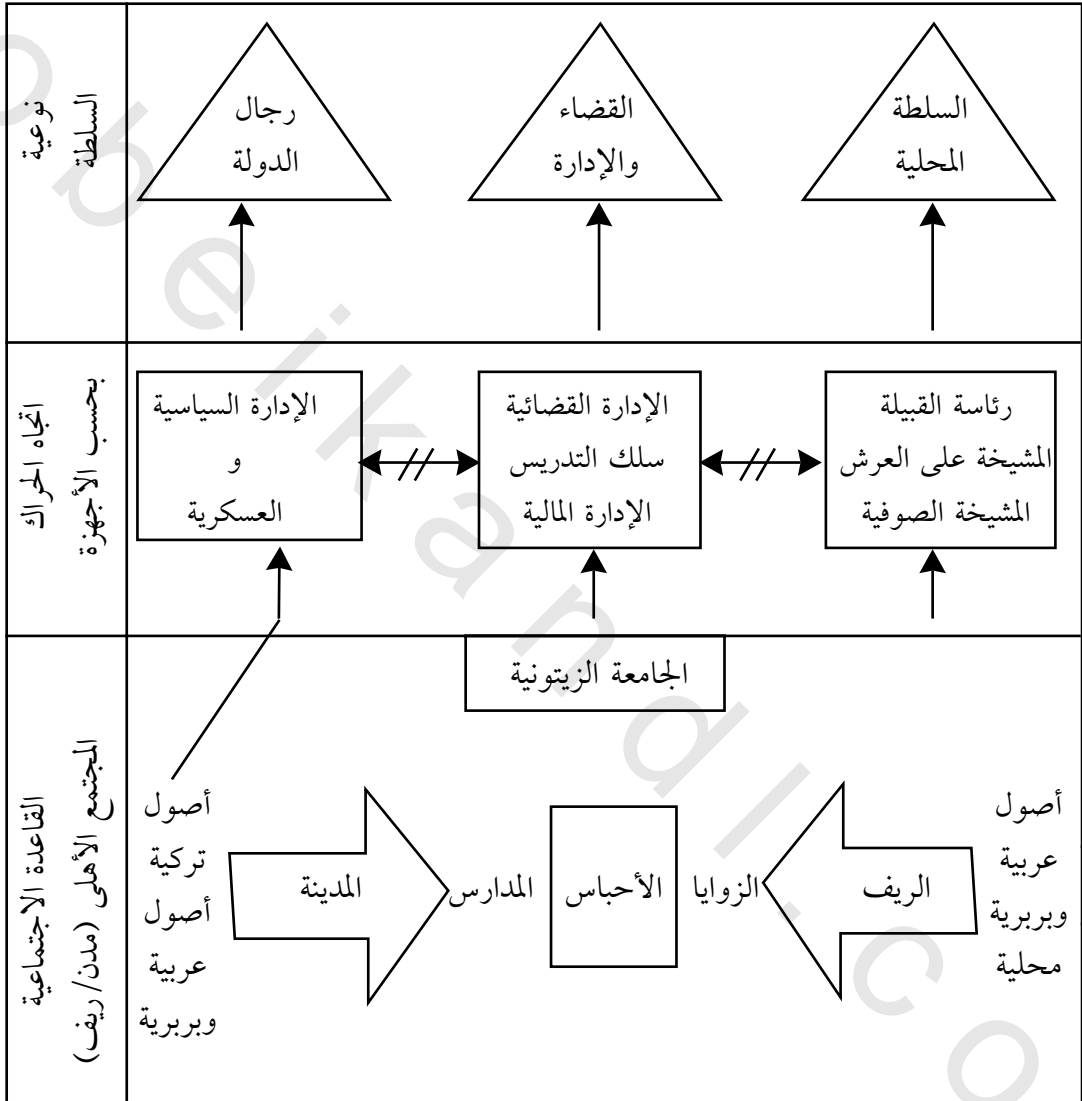
فطبيعة الحراك التعليمى بالنسبة للقبيلة تتمثل فى البحث عن مشروعية للخطاب السياسى ، ويبقى ذلك رهين التحول من ثقافة الزوايا إلى ثقافة الشرع وبالاتجاه بالحراك من الآفاق إلى المركز . وتتوقف طبيعة الحراك داخل المدينة وخاصة الحاضرة على مدى نجاعة توظيف خطاب الشرع لإضفاء الشرعية على المخزن . وبذلك يبقى مقياس الترقى أو النزول فى الخطط العلمية رهين النصح والوفاء للسلطان .

فقد كان الحراك التعليمى فى القرن التاسع عشر يخضع لقطب دافع وقطب جاذب . فالقطب الدافع هو طموح وأبناء الأصول القروية والقبلية التوجه نحو الحاضرة لاستكمال التعليم بالجامع الأعظم . كذلك الشأن لأبناء العامة ممن ينحدرون من أصول مدنية أو قروية فقيرة .

أما القطب الجاذب فهو جامع الزيتونة بالحاضرة الذى يمكن التحصيل فيه من نيل بعض الشهادات تخول لأصحابها إدارة الأحباس أو الإشراف على الزوايا أو الاشتغال بالقضاء والتعليم سواء فى المراكز المدنية أو بقراهم ونواجههم . والطموح الأكبر بالنسبة للأغلبية هو الفوز بخدمة من خدمات المخزن .

والتنافس العلمى قد يفرض على البعض الرحلة إلى المغرب الأقصى أو إلى مصر والحجاز لتحسين الثقافة وتنمية التحصيل والفوز ببعض الوظائف السامية بالجامع الأعظم نفسه كالتدريس أو الترقى فى الخطط السياسية رغم ندرتها وصعوبتها أمام أبناء البلاد ولادة .

اتجاهات الحراك نحو السلطة



(١)

١ - انظر عبد الوهاب حفيظ: صورة للحراك الاجتماعى والسياسى. حالة تونس فى العهد

الحسينى. الوحدة - السنة الخامسة - العدد ٥٧ ذى القعدة ١٤٠٩هـ/ جون ١٩٨٩

ص ٣٩.

ب - الخطة بين الوراثة والاكتساب؛

لقد شكل العلماء باعتبارهم فئة اجتماعية ممتازة إلى جانب الجيش وموظفى الدولة تنظيماً من أكثر التنظيمات الهرمية فى المجتمع، وذلك لما اشتمل عليه دورهم على مدى واسع من الوظائف كالخطابة والإمامة والقضاء والإفتاء. وقد يجمع الواحد منهم صلاحية الشغل بأكثر من خطة كالمفتى محمد سعادة الذى عزله على باشا من مشيخة التدريس وخطة الفتوى وسائر الوظائف التى يشغلها. ولما أثارت هذه السياسة حفيظة الشيخ قال لعلى باشا "إنك نسيت خطة لم تعزلنى عنها وهى أن تنزع ما بقلبى من العلم إن قدرت. فقال له قاتلك الله اجلس وأنت على سائر خططك التى تقدر على نزعها والتى لا نقدر"^(١) فتعدد الخطط جلب للعالم سلطة شعبية متينة من قبل العامة التى تراه الممثل الدينى والأخلاقى الأسمى. لكن وإن لم يفلح البايات فى عزل العلم من صدور الرجال فإنهم أفلحوا كما سنرى فى عزل العلماء من صدور العامة وذلك لأن سياسة البايات كانت تعمل على استثمار أهم العناصر المؤثرة فى المجتمع وعلى الاستفادة من أبرز البيوتات التى ارتقى بها نسبها وحسبها سواء بالوراثة أو بالاكتساب. وهذا ما يفسر استبداد بعض العائلات واحتكارها لأكثر من خطة ووظيفة أصبحت بذلك الظاهرة الأسرية هى التى تميز النخبة العاملة عن غيرها. وهذه الظاهرة فى القرن التاسع عشر لم تشذ فى الواقع عن تاريخ البلاد. إذ أنه من أشهر العائلات التى عرفتها تونس فى القرن السابع عشر والثامن عشر نجد عائلة الرصاع وفتاتة وعائلة البكرى التى بقيت "الإمامة فى بيتهم أكثر من مائة سنة غير معبر فيها إلا هذا

١ - الإتحاف ٢ / ١٤٩.

النسب" (١). كذلك أبدى أهل القيروان تشاؤمهم في العهد التركي المرادى من احتكار العضاضمة لمناصب العلم وتوارثها بينهم وقد تناقلوا مثلاً عندهم وهو قولهم: "القاضى عظموى والمفتى عظموى وأنت لشكون تشكى يا شومى" (٢). وقد سيطرت هذه "الطبقة الأرستقراطية" على المؤسسة الدينية بالحاضرة واحتكرت أهم المناصب القضائية والعلمية طيلة عقود من الزمن " إذ يكفى أن يشتهر عالم من علمائها ليكسب لنفسه ولعائلته مكانة لدى السلطة الحاكمة ولدى الأوساط الشعبية" (٣). أما ابن أبى الضياف فقد عبر عن الظاهرة الأسرية فى تولى المناصب العلمية بتعابير مختلفة وفى سياقات عديدة نذكر منها: - أصل هذا الرجل من بيت مجد ورفعة... قدم جدهم الأعلى من إشبيلية... وتابعه آل بيته فى الخطط النبيلة" (٤).

فالتجذر بالحاضرة والتوطن بالعاصمة لم يكن هينا على أبناء الأقاليم والأرياف لا سيما الفقراء منهم ومن لن ترتق بهم موهبتهم إلى مصاف فحول علماء. وهناك من خرج من ناجعة قومه مثل محمد المناعى من أولاد منع بدريد. فقد "رحل إلى طلب العلم بالحاضرة... ثم رحل فى طلب الفقه إلى حاضرة فاس... ولما امتلأ بالعلم صدره، أتى الحاضرة ودرس بالجامع الأعظم" (٥).

١ - الإتحاف ٧٠ / ٦٠.

٢ - محمد الجودى - تاريخ قضاة القيروان - محفوظ - المجلد رقم ٢١٧٩٩ - ص ٤٣.

3 - Jaque BERQUE: I, Interieur du Maghreb (15e - 19e) siecle. Paris 1978 P 103

٤ - الإتحاف ٨ / ١٤٠.

٥ - الإتحاف ٧ / ١٦٥.

ومن العلماء من يتجاوز طموحه التدريس بالجامع الأعظم إلى بعض الخطط المخزنية كالشيخ أبو الغيث البكرى "الذى التزم العلقة والغابة" (١). والخدمة المخزنية قد تذهب بوقار العلماء وتدنى من مكانتهم لدى العامة والخاصة. فالوزير محمد العربى زروق قال للشيخ المذكور على سبيل الاحتقار: "بالأمس كنا نقوم لتلقيك إجلالا لسلفكم وحيث لم ترق بسيرتهم وأثرت عنها الولاية المخزنية فلا بد أن تكون كرجالها تفعل ما يفعلون من غير فرق" (٢). كذلك احتقار جند الترك للشيخ محمد الأصرم الباش كاتب حيث اعتبروه "من المخازنية وليس من أهل المجلس الشرعى" (٣). لذلك يكاد ارتقاء النخب التونسية العالمة يتوقف على:

- النسب العائلى.

- المركز الاجتماعى (الحسب).

- الولاء السياسى المخزنى.

- الموهبة العلمية (أحيانا). "وأقبل بقلبه وقالبه على العلم" (٤).

أما بالنسبة للنخب التركية فهى تمثل "الأرستقراطية" الثرية المنحدرة من كبرى العائلات التى تمثل قمة الهرم الاجتماعى فى الجاه والسلطة بل أكبر الملكيات والإقطاعات كانت من نصيبهم مثل ملكية آل بيرم وقد استمدت هذه الفئة سيطرتها على المجتمع الحضرى المدينى من نفوذها التاريخى والسياسى لا

١ - الإتحاف ٧ / ١٢٨.

٢ - الإتحاف ٧ / ١٢٩.

٣ - الإتحاف ٣ / ١٥٤.

٤ - الإتحاف ٧ / ١٣٨.

سيما وأن شيوخ الترك وعلماء الحنفية من قضاة وجند ومستشارين كانوا من الفلاحين للبلاد سنة ١٥٧٤. وقد استنقص ابن أبي الضياف من عطائهم العلمى آنذاك. "فالقاضى منهم أشبه بالجندى من العالم" (١).

ورغم الانفتاح النسبى على المشاركة المحلية فإن حركة الانتداب حسب ابن أبي الضياف لم تخل من معيارية العصبية المملوكية. من ذلك انتخاب أعضاء المجلس الأكبر الذين "لم يكن فيهم من أبنائها ولادة إلا ابن أبي الضياف" (٢).

فجل المسؤوليات فى الإدارة المحلية للبلاد بقيت محتكرة من قبل المماليك والأتراك الأحناف. وهذا التميز لم يكن مؤسسا على العلم والكفاءة لأنه من الاتفاق أن أهل المجلس الأكبر لم يكن منهم واحد من أهل العلم" (٣). فالمشاركة المشروعة كانت تستند إلى علاقات القرابة والدم التى تلغى معيار الأهلية والجدوى. وسياسة التمايز تتجلى أيضا من خلال توزيع العلماء. فنسبة التمرکز بالحاضرة تفوق الأقاليم الأخرى. "فمن جملة ٩٥,٤٪ من المثقفين التونسيين يوجد منهم ٦٠٪ بالعاصمة و ٥٪ بالقبائل والبقية موزعون على الأقاليم الأخرى" (٤). خاصة أن ثلاثة أرباع السكان لا يستوطنون الحواضر.

فهل يمكن الحديث عن نخبة مستقلة وموحدة فكريا لكل هذه الاعتبارات؟ إن أحمد بن أبي الضياف كان كاتب سر البابليك وهو حب المشير

١ - الإتحاف ٢ / ١١٧.

٢ - الإتحاف ٥ / ٤٤.

٣ - نفس المرجع.

أحمد باى وخير الدين^(١). النصوص الأوفى لم ينفصل عن الوظائف السياسية إلا بالاستقالة. والشيخ إبراهيم الرياحى كان سفيرا للقصر الإمارى. وأغلب العلماء من مفتين وقضاة هم عمال لدى الدولة. لذلك تحول العلماء والفقهاء إلى موظفين لدى الدولة ومنتفعين بربع الأوقاف. ففقدوا كل استغلال يعينهم على نقد البايات وتجاوزاتهم. والنقيصة لا تكمن فى اشتغال العلماء بالوظائف السياسية ولكن فى تقمص دور فقهاء السلاطين والمروق عن نهج المصلحين. وكانت مؤسسة العلماء فى هذا العصر تنقسم إلى فئة حنفية مقربة وفئة مالكية تسعى إلى التقرب. "فالباى كان يجلس قضاة الحنفية عن يمينه.

وقضاة المالكية عن شماله ويؤتى إليهم بأطباق من الفضة فيها شىء من الحلو يطعمه "الولى" معهم ثم يرشون بالطيب ويقرأون الفاتحة ويقوم لوداعهم ويقبلونه"^(٢).

١ - خير الدين باشا هو من قبيلة أبازة الضاربة بجمال الجركس فى الشمال الغربى من بلاد القوقاز. اشتراه نقيب الأشراف فى أسواق الرقيق بالأستانة. ألقته يد الأقدار إلى مبعوث من طرف الباي جاء ينتقى له ممالك سنة ١٢٥٥هـ فى صدر مدة المشير الأول أحمد باى. درس بالمكتب الحربى وترقى فى السلك العسكرى إلى أميرالاي الخيالة سنة ١٢٦٣ صاهر مصطفى خزندار على ابنته. أقام فى باريس ٤ سنوات للبننت فى نازلة بن عياد. رقه محمد باى إلى رتبة أمير الأمراء سنة ١٢٧٢ ثم إلى وزير البحر ١٢٧٤، كما أنظم إلى العاملين فى تأسيس عهد الأمان. بعثه المشير الثالث إلى عاصمة الخلافة سنة ١٢٧٦ كما قبل رئاسة اللجنة المالية المختلطة سنة ١٢٨٦.

وفى سنة ١٢٩٠ تولى الوزارة الكبرى. وأمام الدسائس والمكائد استغنى من الوزارة وتوجه إلى الأستانة سنة ١٢٩٥ حيث تولى منصب الصدر الأعظم ثم استقال منه سنة ١٢٩٦ وتوفى سنة ١٣٠٨.

الإتحاف ٧/ ٦١ - ٦٢.

٢ - انظر محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار ٢/ ١٢٣.

ويكشف هذا السلوك بوضوح عن حجم النخبة المثقفة في نظر البايات والتي لم يتجاوز حضورها اللقاءات الودية لأكل الحلو والتطيب بأحدث الروائح. كما أضحت منزلتهم منزلتين واحدة على اليمين والأخرى على الشمال وكذلك مواقفهم. لذلك فقد شنع ابن أبي الضياف بعلماء عصره لأنهم "لم ينتزهوا حتى على تقبيل أيدي أغيلمة صغار من أولاد الباي وإخوته وهم لا يتحاشون ذلك بل ربما نظروا شزرا لمن تغافل عن ذلك" (١).

فقد ضمت النخبة المثقفة في العهد الحسيني في القرن التاسع عشر من ليس منها ولبس الجبة من ليس من أهلها، فانحرفت عن الدور الاجتماعي والسياسي المنوط بعهدتها حتى أنها اعتبرت "منصبها الشرعي لا يناسبه مباشرة الأمور السياسية" (٢).

لقد ترك "سقوط" شيوخ الطرق الصوفية لدى العامة استياء كبيرا عمقه "انسحاب" العلماء من الساحة الاجتماعية والسياسية، لذلك فقد وصفوا "بعلماء آخر الزمن أعوان الظلمة" (٣) في ثورة ١٨٦٤. هكذا يرتد الحراك ويتأزم بين المجتمع ورمزه التاريخي والديني الذي "انقطع إلى العلم انقطاعا كليا ونبذ ما سواه ظهريا" (٤). ومن العوامل الأخرى المدمرة لمظاهر الحراك التعليمي ضرب الدولة لمظاهر التماسك الداخلي إذ أخضعت إدارة الأحباس لسلطتها وفرضت عليها إرادتها بالقوة. فبعد أن كان أهل العلم والصلاح من أبناء البلاد يشرفون عليها. انتدب لها المشير الأول أعيانا من العسكر لإدارتها.

١ - الإتحاف ٥ / ٣٥.

٢ - الإتحاف ٤ / ٢٧٥.

٣ - الإتحاف ٥ / ١٦٢.

٤ - الإتحاف ٥ / ١١٢.

أما محمد الصادق باي فقد استخلص فواضل الأحباس لضروريات العسكر سنة ١٢٧٩ / ١٨٦٣ . ولم يعد الوكلاء يشرفون على الأوقاف . ولم تعد المراجعة بيد القاضى أو المحتسب . ومعلوم أن إدارة الأحباس من الوظائف التى يحصل عليها خريجى الآفاق من جامع الزيتونة وأموالها تنفق لمساعدة طلبة العلم والفقراء والمساكين . والنواب الذين قدمهم الأمير استعملوا الشدة العسكرية فى اقتضاء فواضل الأحباس " كأنها غنيمة أنتجها غلب حرب " (١) .

نلاحظ فى خاتمة هذه الفصول الثلاثة أن حركية الانتظام والتفاعل داخل البناء الاجتماعى والسياسى تعكس نسقا ثقافيا مترابطا ومتكاملا . فالعلاقة الجدلية التى كانت تربط مختلف الأجهزة والرموز تعبر فى الحقيقة عن خصوصية تاريخية وحضارية لنموذج اجتماعى موحد سياسيا وثقافيا . فالقصر - المدينة - القبيلة - الجامع الأعظم - الزاوية - الأحباس - الطريقة كل هذه المؤسسات تعكس مواقع مختلفة وأدوار هامة داخل نسق الانتظام الداخلى . فالعلاقة بين القواعد والرموز ليست آلية بل هى امتداد تاريخى وجغرافى لنمط من التضامن العضوى على المستوى المادى والأخلاقي والروحي . وحركة الانفتاح والانغلاق أو الاتصال والانفصال التى تميز نظام العلاقات الداخلية لا تعكس عتاقة المجتمع وركوده التاريخى . بقدر ما تعبر عن الحركة " الانعكاسية " إزاء كل تدهور داخلى أو تهديد خارجى مهدد لتوازن نسق الانتظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى .

وأهمية المراكز وفعاليتها جذبا أو دفعا فى القرن التاسع عشر هى وأهمية المراكز وفعاليتها جذبا أو دفعا فى القرن التاسع عشر هى فى الواقع نتيجة

١ - نفس المرجع .

لتناقضات داخلية أو إفرازات لعوامل خارجية ساهمت فى تعميق الخلف بين المجتمع والدولة أو بين المرجع والمستجد. وبناء على ذلك نلاحظ الحراك الصاعد لبعض المراكز التى أضحت محل استقطاب الأطراف الداخلية والخارجية وذلك أمام الحراك النازل لقواعد أخرى تقلص نفوذها التاريخى فى القرن التاسع عشر. فالمذهب الفقهى تراجع نفوذه التاريخى أمام الطريقة الصوفية فقد فرضت رمزيتهما الاعتقادية وتوجهها الشعبى من تبوؤ المكانة الوسطى بين مختلف الأطراف. وقد عبر الشيخ إبراهيم الرياحى عن تقلص التأثير الفقهى لدى السلطان بقوله:

قل للأمير نصيحة لا تركن إلى فقيه
إن الفقيه إذ أتى أبوابكم لا خير فيه^(١).

وتراجع المذهب أمام الطريقة يبرزه:

- صرامة المقولات الفقهية فى تقييمها لسلوك سكان المداشر والقبائل.
- ارتباط الإنتاج الفقهى بالمساجد. فلم يكن "المجتمع القبلى" قادرا على رعاية طبقة من الفقهاء لغلبة مظاهر التنقل من مكان إلى آخر.
- تسامح الفقهاء مع ظاهرة التصوف لمساهمتها فى نشر العقيدة لدى عامة الناس ولدى "الضالين" من الأعراب. "إذ أن الكثير من أهل الخيام والمداشر لا يعرفون عدد أوقات الصلاة وغيرها من الفروض العينية"^(٢).

١ - محمد بن الخوجة: صفحات من تاريخ تونس: تقديم وتحقيق حمادى الساحلى

والجيلانى بالحاج يحيى. دار الغرب الإسلامى - بيروت ط ١ (١٩٨٦) ص ٢٠٠.

٢ - محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار ١٥٢.

وعلى هذا الأساس أصبحت الطريقة الصوفية فى القرن التاسع عشر تشكل عنصر الائتلاف روحى وفكرى بين مختلف الأطراف الاجتماعية والسياسية. وهذا ما يبرر تنديد الفقهاء ورفضهم للدعوة الوهابية^(١) التى تناهض الطرق الصوفية. وقد فسر ابن أبى الضيف الدعوة الوهابية بأنها عصبية دينية تريد الملك. أما أبو حفص عمر المحجوب فقد "اتهمها بالضلالة والشذوذ"^(٢). لكن لما ناهضت أبرز الطرق الصوفية انتفاضة عامة القبائل وسكان الإيالة من المداشر والقرى وإنجازات إلى المخزن؟. آنذاك تقلصت شرعيتها الروحية والاجتماعية. ولم تجد العامة فى التعبير عن واقعها إلا الاعتقاد فى بركة الأولياء والتوسل بكرامتهم. "حتى أن الواحد من قبيلة زوارة البربرية إذا حلف بسيدى البشر فإنه لا يكاد يحث وسبحته يتبركون بها ويتعاهدون عليها"^(٣).

أما بالنسبة لحركة القبائل فى القرن التاسع عشر فإنها تعكس واقعا اجتماعيا بدأ يفقد خصوصيته التاريخية والإنتاجية والتكافلية أمام سياسة الدولة واعتقاداتها "بأن العربان إذا كثر مالهم ساء حالهم". وأمام التأثير الاقتصادى للنفوذ الرأسمالى الأجنبى وتأثيره على القطاعات المحلية للإنتاج والتبادل.

-
- ١ - الوهابية نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب أسسها سنة ١١١٥هـ / ١٧٠٠م بالحجاز. ومضمونها المطالبة بقرشية الخليفة وتصديق الاعتقاد وتوكيد التوحيد انظر د. محمد خليل هراس: الحركة الوهابية دار الكتاب العربى بيروت ص ١١.
 - ٢ - انظر رسالته فى الرد على الوهابية الإتحاف ٣ / ٨٥ - ٩٥.
 - ٣ - الإتحاف ٧ / ١٤٥.

فالصراع الاجتماعي والسياسي سنة ١٨٦٤ بين القبائل والدول هو في الحقيقة المحاولة الأخيرة للمحافظة على نموذج اجتماعي بدوي يقوم على ممارسات تعاونية^(١) تعمل على تدعيم اللحمة الداخلية بين سكان البوادي والعروش. وفعلا نزل الهرم بالقبيلة وتراجعت قيم البداوة.

"ولم يبق في تلك الجهات (البوادي) من ينظر إليه في رد جاهل أو تقويم معوج أو إرشاد ضال أو إيواء ابن سبيل"^(٢). وتجربة التسيير الذاتي لدى المجتمع القبلي ليست نمطا بدائيا أو متخلفا ومنغلقا على الحضارة. إنما التناقض بين طبيعة الدولة القائمة وخصوصية المجتمع هو الذي أدى إلى انعزال السلطان عن الواقع الاجتماعي. فمن خلال تصور الدولة الحسينية لذاتها:

- هي الحامية للوطن والدين.
 - هي الطرف المهيمن والقوى.
 - هي الحامية لأمانة السلف ووصية الأجداد.
 - هي القائمة بأعباء الجباية والقضاء.
- ندرك أن شرعيتها لا تتجاوز هذه الوظائف. أما القطاعات الأخرى كالصحة والتعليم والأمن والزراعة والتجارة وكل المصالح الاجتماعية فهي

١ - الدولا ب: الإعانة على الحرث والبذر.
الرزية: التخفيف من مصائب من تموت له شاه أو بقرة أو ناقة وذلك بمشاركته في استهلاك لحمها مع تعويض ثمنها.
- الكرسي: إعانة العروس على نفقات الزواج.
- الزردة: تقديم الكسكسي باللحم لزوار أضرحة الأولياء.
٢ - الإتحاف ٦/ ٤٣.

خارجة عن اهتماماتها. وأمام التهور الأجنبي والضغط الرأسمالي استمرت سلطة الدولة على العباد أكثر من سيطرتها على البلاد (الأرض). لذلك توجه أحمد باى إلى فرنسا يبحث عن شرعية البقاء.

أما بالنسبة إلى الحواضر فقد شكلت عبر تاريخ البلاد مراكز العلم والدين والأمن. وقد ساهمت هذه المعالم الحضريّة في استهجان تقاليد البدو التي تتناقض مع معالم العمران الحضارى لا سيما أشكال الغزو والإغارة. وفي انتفاضة ١٨٦٤ رغم عموم السبب لم يكن سهلاً تجاوز الموروث التاريخي والسلبى بينهما. إذ سرعان ما انتهت مشاركة المدن في الانتفاضة بإعلان الولاء السياسى للحكومة. ولعل ما يبرز ضعف المراكز المدنية وهامشيتها عن مظاهر الصراع الاجتماعى والسياسى عبر تاريخ الإيالة هو غلبة الطابع البدوى والقبلى على مظاهر العمران الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر. إذ أن ثلاثة أرباع السكان ينتمون إلى أصول قبلية. وهو ما يفسر عدم استقرار المركز السياسى عبر تاريخ البلاد وتحوله من القيروان إلى المهدية ثم إلى تونس. لم يكن الانتفاض والخروج والثورة من تقاليد سكان المدن عبر تاريخ البلاد كما بين ذلك ابن أبى الضياف.

فديدن هذه الحواضر هو البحث عن الاستقرار وعن جو يخلو من الفتن والثوار. لذلك لم تتجاوز الانتفاضات داخل الحواضر التونسية الأشكال المطلوبة المحدودة.

وقد لاحظنا من خلال انتفاضة ١٨٦٤ تراجع الأدوار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمدن الوسط والشمال الغربى. فقد تحلوت مدن باجة - الكاف القيروان إلى قلاع عسكرية لمراقبة تحركات القبائل ومقاومة كل

تمرد محتمل . بذلك فقدت هذه المدن دورها فى إقامة التواصل والتوازن بين عالم البدو والرحل وعالم المتحضرين .

وقد تقلص الدور الثقافى والدينى لمدينة القيروان فى إصلاح عامة سكان القبائل وتوجيهها . وأصبحت فى العهد الحسينى مدينة سباسب لا غير . وأمام تراجع هذه المدن تحولت مدن الساحل إلى قلاع اقتصادية ومراكز تجارية هامة وذلك لانفصالها النسبى عن القطاعات الإنتاجية الريفية وارتباطها بالجارة الأوروبية .

عموما الاختلاف فى التوجه والهدف بين المجتمع والدولة بالإضافة إلى أشكال "التمرتب الاجتماعى المتوارث"^(١) على مستوى السلطة والخطة والحرفة والمشيخة . علاوة على تدهور القطاعات الإنتاجية لا سيما التوظيف الردى للفوائض الإنتاجية . كل هذه الأسباب ساهمت فى تداعى الحركية الاجتماعية ونظام العلاقات الداخلية . حيث تدهور القطاع الفلاحى بتدهور القبيلة . وازدادت جاذبية الوسط الحضرى المدينى فى القرن التاسع عشر على مستوى التعليم والمهن التجارية والصناعة التى تبعثها الاستثمارات الأجنبية . مما ساهم فى تعريف المدينة عوض تمدين الأرياف .

١ - كان التحرك الاجتماعى يتم فى إطار موروث فقد حافظ المجتمع على تقاليده . فرغم الثورات والانتقال من دولة إلى أخرى ورغم المحن والانقلابات بقيت الأخلاق والعادات على ما كانت عليه فى القرون السابقة . وبقي التقليد متحكما فى الخاصة والعامة . . . كانت الأقدمية دليلا على الشرف والحكمة ما أثر عن السلف . وكانت البدع مستنكرة . وتعتبر علامة من علامات آخر الزمن .

انظر أحمد عبد السلام : المؤرخون التونسيون ص ٩٠ .

لكن إلى أى حد يمكن اعتبار هذه التحولات الاجتماعية والسياسية
تجاوزاً للتعليل الخلدونى؟ وهل يمكن الحديث عن أرض بلا شعب فى القرن
التاسع عشر؟ ثم إلى أى حد تلتقى وتتقرب هذه المقاربات الفكرية مع حقيقة
الواقع وخطاب المؤرخ أو بين ملابس الطرف والرؤية الفكرية؟